تمظهرات الآخرة في نصوص أبي العلاء

(النصوص التأصيلية لرسالة الغفران)

أ. منير بن ذيب

المركز الجامعي ميلة

كانت التجربة (الآخرية) عند أبي العلاء مقولة كبرى من المقولات الفنية التي أسست للخطاب الرؤيوي والعالمي في تراث العرب الابداعي ، والذي يختلف إلى حد ما عن ذلك التشكل اللغوي و البلاغي الذي غطى طويلا وطغى على الصورة والتصور الشعري والنثري في تراثنا القديم وعموده، أي أن أبا العلاء الفيلسوف الشاعر كان ذلك المؤسس لهذه الرؤية الإبداعية التي غابت إلى حد ما عن كثير من المبدعين من الشعراء والنثريين ،وذلك ما يبعث على تقصي تلك الرؤية قصد الحصول على صورة شاملة عن التصورات الآخرية في أعمال أبي العلاء الأولى كفاعلية إبداعية ودافعية تأصيلية أولى مثبتة لإملاء نص (رسالة الغفران) الذي كان معبّرا عن اكتمال التجربة الابداعية واستجماع الشذرات الفنية الأولى التي ضعه ضمن نسقيته الإبداعية الخاصة لهذا الأدب .

والمتتبع لنصوص أبي العلاء المختلفة ، شعرية كانت أم نثرية يصطدم بحضور لافت لذكر الآخرة ، حضور لافت من ناحيتين اثنتين: أولاهما تعلق أبي العلاء بذكر الآخرة في كل مؤلفاته و حتى في رسائله ،وثانيهما تعلقه بذكرها من زوايا كثيرة ومتنوعة، أي هي مقولة تكشف عن إبداع تجلى في مظهرين اثنين: الكثرة والتعدد، مما يستدعي الكشف علميا –وفق نماذج مختارة مع تسليط الضوء على تنوع طبيعة هذا الذكر وأنماطه – إلى ما توزعت إليه من أشكال وأنواع ، مع مراعاة طبيعة التطور التاريخي لهذه الأنماط، ويجعل منه المؤسس الفعلي لأدب الآخرة عند العرب في مقابل نموذج ذلك عند الغرب مع دانتي في عمله الإبداعي العالمي (الكوميديا الإلهية) .

1–التكون الجنيني

يكشف ديوانه (سقط الزند) الذي أملاه في شبابه عن همة عالية وشبيبة وقادة والتزام أخلاقي صارم ، يقول :" أما بعد فإن الشعراء كأفراسٍ تَتَابعنَ في مدى، مَا قَصُرَ منها لُحِقَ وما وَقَفَ ذِيمَ وسُبِقَ ، وقد كنت في رُبَّانِ الحَدَاثَةِ وَجنِّ الّنشَاطِ مَائِلًا فِي صِعْوِ القَرِيضِ ، أَعتَدُّهُ بَعضَ مَآثِرِ الأَدِيبِ و مِن أَشرَفِ مَراكِبِ البَلِيغِ، ثُمَّ رَفَضتُهُ رَفضَ السَّقَبِ غَرسَهُ و الرَّأْلِ تَرِيكَتَهُ، رَغبَةً عَنْ أَدَبٍ مُعْظَمُ جَيِّدِهِ كَذِبٌ وَرَدِيئُهُ يُنقِصُ ويُجْدِبُ ... ولَمْ أَطْرُقْ مَسَامِعَ الرُّؤَسَاءِ بِالنَّشِيدِ وَلَا مَدَحْتُ طَالِبًا لِلثَّوَابِ ، وإنَّما كان ذلك على مَعنَى الرِّيَاضَةِ وَ امْتِحانِ السُّوسِ"[1]

ولكن الملاحظ أن أبا العلاء يروض الطبيعة الشعرية بالحديث عن الآخرة وبها يطبع شعره وشخصيته، ودلالة ذلك أن أول ما نقرأه من هذا الديوان هي قصيدته التي مطلعها:

غير مجد في ملتي واعتقادي نوح باك ولا ترنم شاد[2]

وما في القصيدة عن عزوف الرجل الشاب عن الدنيا التي أدبرت عنه فقابلها بإدبار أكبر وأكثر ، لاسيما حينما نقرأ له من القصيدة ذاتها قوله:

رب لحد قد صار لحد مرارا ضاحكا من تجانس الأضداد

خفف الوطء ما أظن أد يم الأرض إلا من هذه الأجساد"[3]

وهما بيتان يكشفان بجلاء عن آخرية أبي العلاء ، أو تطبعه منذ الشباب بالحديث عن الآخرة وما يتصل بها من ذكر وخبر ، مما جعل (أحمد الشايب) يقول:" وعندي إن أبا العلاء كان بهذه القصيدة يرثي الدنيا جميعا ، ويقف على هذا البرزخ بين الحياة والموت يبكي عدوان الآخرة على الأولى ويعجب لسلطان الموت وسطوته "[4] .

و أما قصيدته في رثاء أبيه من الديوان نفسه ، فبالإضافة إلى أنها تكشف عن حزن أبي العلاء العميق فإنها تقدم إشارات أولى عن تمثل أبي العلاء لمشاهد الآخرة فنيا، حين يقول:

فيا ليت شعري هل يخف وقاره إن صار أحد في القيامة كالعهن
وهل يرد الحوض الروي مبادرا مع الناس أم يأبى الزحام فيستأني[5]

ونختار من هذه القصيدة أبياتا تدل على حيرة أبي العلاء و استشرافه للآخرة منذ حداثته:

هنيئا لك البيت الجديد موسدا يمسك فيه بالسعادة و اليمين
مجاور سكن في ديار بعيدة من الحي سقيا للديار و للسكن
طلبت يقينا من جهينة عنهم ولن تخبريني ياجهين سوى الظن
فإن تعهديني لا أزال مسائلا فإني لم أعط الصحيح فأستغني
فيا قبر واها من ترابك لينا عليه ، وبه من جنادلك الخشن
فهل أبت إن ناديت رمسك سامع نداء بل ابنك المفجوع بل عبدك القن
و أحمل فيك الحزن حيا فإن أمت و ألقك لم أسلك طريقا إلى الحـــــزن
و بعدك لا يهوى الفؤاد مسرة وإن خان في وصل السرور فلا يهنى[6]

وهي أبيات كما نرى تجمع بين سؤال الحيرة من الموت و ما بعده ، و الذي تجلى بعمق أكثر في ديوان اللزوميات إضافة إلى محاولات فنية أخرى في استحضار مشاهد الآخرة ، كما نقرأ له في هذه الأبيات:

تقرب جبريل بروحك صاعدا إلى العرش يهديها لحدك والأم
فدونك مختوم الرحيق فإنما لتشرب منه كان يحفظ بالختم
لعلك في يوم القيامة ذاكري فتسأل ربي أن يخفف من إثمي[7]

وهذه المواقف الآخرية نفسها هي التي يرددها أبو العلاء عند ذكر وفاة أمه التي وصله خبر نعيها إثر عودته من بغداد ، وقد ألحت عليه أن يزورها ، فأملى هذه السطور إلى خاله أبي القاسم على بن سبيكة بما يلي:" كتابي أطال الله بقاء سيدنا ما طلع صبير ورسَا ثَبيرٌ ، من مَعرَّة النُّعمانِ ، وَلِكُلِّ نَبَأٍ مُسْتَقَرّ ، وَرِدْتُهَا بَعدَ سَآمَةٍ وُرُودَ كَعْبِ بن مَامَة فَإِنَا لله وإنا إليه راجعون، و له الحمد ممزوجاً به الدَّمعُ، مُسْتَكًّا لَه مِنَ الوَجْدِ السَّمْعُ ، وَصَلَّى الله على سيدنا محمد وَعِتْرَته صَلَاةً يَثقُلُ بِهَا لِسَانِي حُزنًا، وتَرجِعُ في المَحشرِ قَدرًا وَوَزنًا

فَإِنِ يَنقطِعْ مِنكَ الرَّجاءُ فَإِنَّهُ سَيبقَى عَليك الحُزنُ مَا بَقِيَ الدَّهرُ

لا أمل بعدها خيرا ولا أزيد في المحن إلا إيضاعا وسيرا...

لَا بَارَكَ اللهُ في الدُّنيا إذَا انقطعتُ أسبابُ دُنياكَ مِن أَسبابِ دُنيانَا

يَا سُلوةَ مَوعِدُكِ الحَشرُ مَوعِدك والله بَعيدُ ، لَا سُلوةَ حتَّى تؤوبَ عَترةُ الْقَرَظَةِ و يَرجعُ النُّعمانُ إلى الحِيرةِ ، ويُبعثَ نبيٌّ من مكةَ لوْ لَمْ تكنِ الآجالُ دُبُرًا لَوجبَ أَنْ أُقتلَ بها صَبرًا ، على أَنِّي والله قد أعلمتها أَنِّي مُرتَحِلُ ، وَإِنَّ عَزميَ على ذلك جادٌّ مُزمِعُ ، فَأَذِنت فيه وأحسبها ظنَّته مَذقةَ الشَّاربِ ووميضَ الخَالبِ ، ولِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابُ ، وَحُزني لِفَقدِهَا كَنعيم أَهلِ الجنَّةِ، كُلَّمَا نَفدَ جُدِّدَ"[8]

ونلاحظ في الرسالة حزنا زاد من تعميقه أكثر وفاة الوالدة، فبعد أن رمى الدهر أبا العلاء بالعمى ووفاة الأب نجده يستسلم إلى الحزن ، ويقول في محاورة أمه:

فإن ينقطع منك الرجاء فإنه سيبقى عليك الحزن ما بقي الدهر

ويجعل من العزلة موقفا وجوديا وسلوكا أخلاقيا أملاه تتابع النوائب و الابتلاءات من العمى إلى فقد الأبوين ويجعل حياته بعد ذلك كله جدلا بين أن يعيش جسدا في الدنيا وروحا في الآخرة ، ويمتزج عنده العالمان وجوديا وفكريا، فيستحضر الآخرة و مواقفها كلما رأى لذلك مدعاة ،في غيبة مستمرة عن الدنيا ، أو تغييبا قصديا لها ، ورسالته السابقة تدل على ذلك حين يجعل من دمعه على أمه ذا قدر ووزن يوم المحشر .

2-الآخرة كرؤية فكرية

بناء على الأبيات السابقة والتي نلمس فيها بوضوح يأس أبي العلاء من الدنيا واقتناعه بالآخرة كمعايشة وجودية و حضور وجداني ، يقول :

فيا ركب المنون أما رسول يبلغ زودها أرج السلام

سألت اللقاء ؟ فقيل حتى يقوم الهامدون من الرجام

ولو عدوا الفراق بعمر نسر طفقت أعد أعمار السمام

فليت أذين يوم المحشر نادى فأجهشت الرمام إلى الرمـــام"[9]

إن تمني أبي العلاء اقتراب يوم المحشر في البيت الثالث يجعل من لحظات العمر الدنيوي انتظارا ، والانتظار يجعل من لحظات العمر كلها لا قيمة لها إلا في مشاركتها للحظة المنتظرة ، وهكذا يمكن تفسير حياة المعري بعد الثلاثين من العمر هي تطليق للدنيا ، " بل ينبئنا أبو العلاء في الفصول والغايات بأنه استيأس من الخير وبدأ سيرته الفلسفية حين أتم الثلاثين ، أي قبل سفره إلى بغداد بأعوام "[10] واتخذ له بيتا أو سجنا على حد تعبيره و تعبير طه حسين الذي أقام " فيه نحو خمسين عاما أو استكشف ذات يوم أثناء إقامته ببغداد أو أثناء عودته منها ،أو بعد أن استقر في المعرة أنه مقيم في هذا السجن منذ رشد وبلا لذات التفكير و آلامه "[11] وتزوج الآخرة قلقا وجوديا و انتظارا وجدانيا ، بل لم يعد يرى في الدنيا إلا وجها من وجوه الآخرة، يقول:

أراني الكرى أني أصبحت بناجذ ألا إن أحلام الرقاد لضـــلال

وبين الردى و النوم قربي ونسبة وشتان برء للنفوس و إعـــلال

إذا نمت لاقيت الأحبة بعدمـــا طوتهم شهور في التراب أحوال"[12]

و كم تشتبه هذه الأبيات مع ما كان يملي في هذه الفصول من الفصول و الغايات حين يقول:" سبحانك مُؤَبِّدَ الآبَادِ، هَلْ لِلْمَنِيَّةِ نَسَب إلى الرقاد، لَا أتَخَيَّلُ إذَا انْتَبَهْتُ أحداً من الأَمْوَاتِ ، وَإذَا هَجَعْتُ لَقِيَنِي قَرِيبَ عَهْدٍ بِالمَنِيَّةِ، وَمَنْ قَدْ فُقِدَ مُنذُ أَزمَانٍ، أَسأَلُهمْ فَيُجِيبُونَ ، وَأُحَاوِرُهُمْ فَيَتَكَلَّمُونَ كَأَنَّهُمْ بِحَبْلِ الحَيَاةِ مُتَعَلِّقُونَ، لَوْ صَدَقَ الرُّقاد لسكنْتُ إِلَى مَا يُخبِرُ عَن سُكَّانِ القُبُورِ ، وَلَكِنَّ الْهَجعَةَ كَثِيرةُ الكِذَاب.

الدِّيَارُ خَالِيَةٌ وَالأَجْسَادُ فِي الحُفَرِ بَالِيَةٌ والأَرْوَاحُ عِندَ رَبِّنَا مُتَعَالِيةٌ، لَا يُعلَمُ أَنَعِيمٌ هِيَ أَمْ فِي عَذَابٍ " [13]

أي أن أبا العلاء صار يرى في الآخرة وجها من وجوه الدنيا ، كونه صار مقيما فيها، ويقيم تصوراته بناء على هذه الإقامة المفترضة والمعيشة في آن واحد ، وعلى نسق من التناقض والتوافق في آن أيضا، وفي ذلك يقول :

"مالي غدوت كقاف رؤبة قيدت في الدهر لم يقدر لها إجراؤها

أعللت علة(قال) وهي قديمة أعيى الأطبة كلهم إبراؤها

طال الثواء وقد أنى لمفاصلي أن تستبد بضمها صحراؤها"[14]

ويقول مخلصا للحظة الأخروية بعدما اختبر خبر الأقوام السالفة :

"سألت رجالا عن معد ورهطه وعن سبأ ما كان يسبي ويسبأ

فقالوا هي الأيام لم يخل صرفها مليكا يفدى أو تقيا ينبأ

أرى فلكا مازال بالخلق دائرا له خبر عنا يصان ويخبأ
فلا تطلب الدنيا وإن كنت ناشئا فإني عنها بالأخلاء أربأ
وما نوب الأيام إلا كتائب تبث سرايا أو جيوش تعبأ"[15]

ويمكن أن نلخص مجمل هذه الرؤية بما يمكن تسميته بخطاب(الآخرة) كموضوع إيمان وموضوع فكر ، وهو الخطاب الذي بعثه من بعده (أبو حامد الغزالي) في كتابه (إحياء علوم الدين) كدلالة وتأكيد منه على تنامي خطاب إيماني وغيبي آخر موازي لخطاب (علم الكلام) الذي يعنى بالعقائد المتعلقة بصورة أولى بالذات الإلهية والأسماء والصفات،بينما الخلاف بينه وبين أبي حامد الغزالي بدا بشكل واضح في تلك الحيرة التي يصبغها أبو العلاء على أبياته في مواقف كثيرة كقوله:

بقيت و ما أدري بما هو غائب لعل الذي يمضي إلى الله أقرب
تود البقاء النفس من ضيفة الردى وطول بقاء المرء سم مجـــرب
على الموت يجتاز المعاشر كلهم مقيم بأهلية و من يتغـــرب
و ما الأرض إلا مثلنا الرزق تبتغي فتأكل من هذا الأنام وتشرب"[16]

وقوله:

و نومي موت قريب النشور و موتي نوم طويل الكرى
فهل قام من جدث ميت فيخبر عن مسمع أو مرى
ولو هب صدقه معشر وقال أناس طغي وافتـــرى
ولو تعثر في الحوض راعي السوا م إلا ليورده ما قرى"[17]

إضافة إلى أن أبا العلاء عمد إلى اختراق موضوع (الآخرة) اختراقا أدبيا ، عبر عنه شعرا ونثرا ولم يشأ أن يفلسف المسألة وينظّر لها ، بل اتخذ منها موقف المعيش الوجودي بدل النظر الفلسفي ، وهو المعيش الذي يمكن أن نعبر عنه بهذه الخطاطة التوضيحية:
وهي الخطاطة التي تجد لها تفسيرها الفلسفي عند أبي العلاء في جدلية المعيش الاسكتولوجي الغيبي الذي يغطي على الحاضر الدنيوي ، والذي يكشف بدوره أيضا عن شمولية الرؤية الغيبية الآخرية لديه وطغيانها،مما يجعل من الدنيا لحظة عابرة تختزن لحظات لا قيمة لها الا فيما تتشارك فيه مع العالم الأكبر، العالم الأوسع /عالم الآخرة كعالم تتجلى تحته كل تمظهرات النشاط البشري على مستوى الأخلاق والسياسة والدين واللغة ، تمظهر يمكن أن نعبر عنه بهذه الخطاطة :

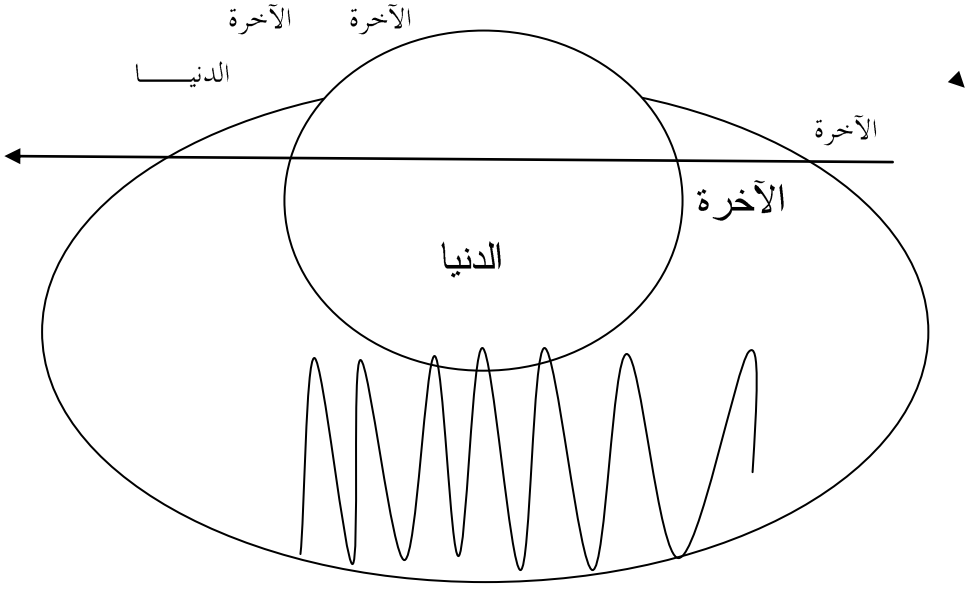

أي أن الآخرة لم تكن عند أبي العلاء لحظة آتية ، بل هي لحظة آنية ، تجد لها حضورها الحيوي والفاعل على مستوى المعيش الدنيوي ، أو بتعبير آخر ، تجد لها حضورها على مستوى الجدلية المعرفية التي تتكشف بين العالمين .

4-الآخرة كرؤية أخلاقية

يقدم لديوان اللزوميات بالقول :" كَانَ مِنْ سَوَالِفِ الأَقْضِيَةِ أَنِّي أَنشَأْتُ أَبْنِيَةَ أَوْرَاقٍ تَوَخَّيْتُ فِيهَا صِدْقَ الْكَلِمَةِ ،وَنَزَّهْتُهَا عَنِ الْكَذِبِ والمَيْطِ ، وَلَا أَزْعَمُهَا كَالسِّمْطِ الْمُتَّخَذِ، وَأَرْجُو أَلَّا تُحْسَبَ مِنَ السُّمَيْطِ ، فَمِنْهَا مَا هُوَ تَمْجيدُ الله الذي شَرُفَ عن التَّمجيدِ وَوَضَعَ الْمِنَنَ فِي كُلِّ جيدٍ ، وَبَعْضُهَا تَذْكِيرٌ لِلنَّاسِي وَتَنبيهٌ لِلرَّقَدَةِ الغَافِلِينَ وَتَحْذِيرٌ مِنَ الدُّنيَا الكُبرَى التِي عَبَثَتْ بالأَوَّلِ، وَاسْتُجِيبَتْ فيها دَعْوَةُ جِرْوَلٍ، إِذْ قَالَ لِأُمِّهِ:

جزَاكِ اللهُ شَرًّا مِنْ عَجُوزٍ وَلَقَّاكِ العُقُوقَ مِنَ البَنِينَا
فَهِيَ لَا تَسْمَحُ لَهُمْ بالحُقُوقِ وَهُمْ يُبَارِكُونها بالعُقوقِ"[18]

وهو بيت يكشف من جانب آخر عن سبب تكنيته الدنيا بـــــ(أم دفر)، وهي كنية تحيل على معجم (أخلاقي) أكثر من أي شيء آخر ، و يحذر الغافلين من مشقة يوم المحشر قائلا:

آه غدا من عرق نازل و مهجة مولعة بارتقاء"[19]

و ديوان اللزوميات لا يخلو من إشارات في ذكر الآخرة كموضوع يدعو للحيرة من المصير من جهة إضافة إلى إغراقه بالإشارات الأخلاقية النابعة من تصور الآخرة كموضوع إيمان بالغيب يستدعي التزاما أخلاقيا وتمثلا وجدانيا من جهة ثانية ، على نحو ما يقول:

أأصبح في الدنيا كما هو عالم و أدخل نارا مثل قيصر أو كسرى
وإني لأرجو منه يوم تجاوز فيأمر بي ذات الشمال إلى اليسرى"[20]

وقد يستغرق بنا المقام طويلا لو بحثنا في إشارات أبي العلاء إلى الآخرة في نصوص ما قبل أو بعد (الغفران) ،بل إن ذلك يتطلب بحثا مستقلا يخصص فقط لهذا الموضوع ، وليس هذا مجاله ، وهي كلها إشارات تؤكد الجانب الآخري من مؤلفات أبي العلاء وشخصيته ، الذي خرج عن الدنيا و هو لا يزال فيها ، كما تقول بنت الشاطئ، ويورد صاحب (الإنباه) قصة في هذا السياق عن أبي العلاء جاء فيها هذا الحوار "وحدثني الوزير فخر الدولة أبو نصر بن جهير قال : حدثني المنازي الشاعر قال: اجتمعت بأبي العلاء المعري بمعرة النعمان و قلت له: ما هذا الذي يروى عنك ويحكى ؟ فقال : حسدوني قوم فكذبوا علي و أساؤوا إلي ، فقلت له: على ماذا حسدوك و قد تركت لهم الدنيا و الآخرة ؟ فقال: والآخرة أيها الشيخ ، ثم أطرق و لم يكلمني حتى قمت عنه"[21] وهو الأمر الذي يدفع بنا إلى اعتبار (رسالة الغفران) واقعا حيا في الآخرة بعدما كانت نصوص قبلها و بعدها تشير إليها إشارات متنوعة ومركزة " و لاشك أن أبا العلاء في مقدمة من صدق عليهم القول بأنهم خير من يقدمون أنفسهم في كل خطوة من رحلة الحياة منذ وعى و سجل اعترافاته شعرا و نثرا عن سيرة حياته و معاناته إلى أن رحل عن الدنيا التي نفض يده وروحه منها من البداية بعد أن سجل فلسفته في الحياة و الموت بكل صدق و أمانة وإخلاص"[22] ، وفعلا فقد عاش أبو العلاء حياة الالتزام الأخلاقي الذي سجله شعره وعبر عنه ، وهو الأمر الذي جعل من (طه حسين) ينسبه إلى فئة الفلاسفة في تراثنا الفلسفي ، كونه عاش ما قال، وجعل من ذلك خطا فلسفيا التزمه طول حياته ، كما يصح أن نعده تبعا لهذا التصنيف على أنه (أديب) الآخرة في التراث العربي والإسلامي ، بما اشتمله من حديثه عنها من زوايا ورؤى مختلفة ومبدعة في مسيرة التراث الأدبي الذي سبقه .

4-الآخرة كرؤية فنية:

لم تقتصر علاقة أبي العلاء بالآخرة على مجرد التمثل الفلسفي والمعايشة الوجدانية ، بل أراد أكثر من ذلك أن يقتحم هذا العالم اقتحاما فنيا ، كون الفن يجعل من المجرد واقعا ، ويصبغ على المتخيل تمثلا عيانا فيصير معيشا ومقولا جميلا ، وبتنامي التجربة الفنية والفكرية جنبا لجنب يصير من العسير ، بل وفي أغلب الأحيان ، من المستحيل التنازل عن ذلك الامتزاج الآسر ، وتلك التجربة القاهرة إلى أن يفيض ذلك القلق الطويل وتلك الممارسة الجمالية المتقطعة عن (نص) يحتوي كل ذلك القلق ويملأ كل تلك الحاجة الجمالية .

والمتأمل في نصوص أبي العلاء يلمس بوضوح رغبته في أن يجعل (الآخرة) وجودا فنيا مشخصا ، وقد سبق لنا بعض النماذج من ذلك، كتلك الأبيات التي يصف فيها وقوف الأب عند الحوض ، وصعود جبريل عليه السلام بروحه وغيرها من الأبيات التي تتطلع إلى إصباغ البعد الفني على ذكر الآخرة ووصف مشاهدها وعوالمها المختلفة ، لو جمعت عدت شذرات استجماعية تمهد كلها لإملاء (نص) أكثر غنى مشهدا وأكثر رحابة فنية ، وأطول نفسا صورة ، هيأته لكل ذلك تجربته المتقطعة السابقة ، وقصديته الفنية إلى هذا العالم منذ حداثته ، حتى غدا عالما مكتملا ومشهدا شاملا في رسالة الغفران، يحيلنا على مقولة مهمة لـــعبد القاهر الجرجاني في حديثه عن التخييل والإستعارة معرفا إياها بالقول:" وجملة الحديث الذي أريده بالتخييل ههنا ما يثبت فيه الشاعر أمرا هو غير ثابت أصلا ويدعي دعوى لا طريق إلى تحصيلها ، ويقول قولا يخدع فيه نفسه ويريها مالا ترى ، أما الاستعارة فسبيلها سبيل الكلام المحذوف في أنك إذا رجعت إلى أصله وجدت قائله ، وهو يثبت أمرا عقليا صحيحا ، ويدعي دعوى لها شبح في الأصل"[23] ، ونستطيع القول تبعا لتوصيفة الجرجاني هذه أن رسالة الغفران هي انتقال من عالم الاستعارة (الصورة البسيطة/ البيت / المشهد الجزئي)إلى عالم التخييل (الصورة المركبة/العالم المتخيل/ المشهد المركب) ومن نماذج ذلك إضافة لما تم ذكره سابقا ، والتي نصنفها ضمن ما يمكن تسميته (سديميات المخيال التصوري) وهناك إلى جانبه ما يمكن أن نسميه (سديميات التصور المخيالي) وتأتي في المرتبة العميقة من حيث التصور بالمقارنة مع العنصر الأول ، ونعني بها تلك النصوص التي تجعل من (الآخرة) واقعا حاضرا على مستوى تخيل العالم ، وكأن أبا العلاء يثبت (حضور الآخرة) فيما ينفي اللحظة الراهنة ، من مثل قوله في (الفصول والغايات) :"اسق اللهم غفرانك قبورا طال عهدها بالسهاد، يصير التراب المحفور مثل الكافور ، ويسكن الأجساد الزكية الأرض المسكية ، ويكسو كل جدث طاهر من باطنه لا الظاهر ، بعد أن يشوفه كل الشوف ما شاء من الخزامى والعرف ، يحسنان في المنظر ويطيبان في السوف ، وتهز قضب الريحان المشموم ريح رحمة ليست بسموم في لحد القرى ، يركض فيه الفارس فلا يرى ، لا يضيق بالعنق والوكرى ، تلذ اليقظة به والكرى ، وألطف مولاي بضيفك إذا اقترى ، ونزل إلى بطن الأرض عن القرى ضيفك ، ولكل ضيف قرى ، ما أجدرك بالرأفة وما أحرى تلبس طمري اللبسة ، وتوحش الدار المؤنسة ، وأصبح وحالي منعكسة كأني جرف نفي بعد إيجاب"[24] ومثل هذا المقطع من (الفصول والغايات) قوله أيضا:"والشقي من حضر عرصات القيامة من أبناء الأقيال ، ذهب ملكه فتقرب إلى الناس بما كان فجفي وما اصطفي ، والسعيد من ورد كالخيبري ، يستشفع بما في الكتاب"[25]

وهناك نماذج مشابهة في أعمال أبي العلاء المختلفة تتجه بنا كلها صوب الخروج بنتيجة مشتركة ، مفادها أن أبا العلاء كان يعيش الآخرة قبل إملاء (رسالة الغفران) وكان يمهد لذلك العالم الثري والمثير بمشاهد تمهيدية استباقية ليؤلف من شتيتها (معراجا) أخرويا فريدا في أدبنا العربي القديم لا زال إلى يومنا هذا مثار جدل ومدار دراسات متنوعة، لاسيما علاقته بالكوميديا الالهية لدانتي في الأدب الأوربي .

الهوامش والإحالات

[1]) أبو العلاء ، المعري ، سقط الزند ، دار بيروت للطباعة والتشر، 1957 ، ص 7

2) م ن ، ص ن

3) م ن ، ص ن

4) أحمد الشايب، أبو العلاء المعري : شاعر أم فيلسوف،المهرجان الألفي لأبي العلاء المعري ،ط2، مطبوعات المجمع العلمي العربي، دمشق، دار صادر، 1994، ص 36

5) أبو العلاء ، المعري ، سقط الزند ، ص 13

6) م ن ، ص 17

7) م ن ، ص 23

8) أبو العلاء ، المعري ، الرسائل ، (الرسالة السابعة) ، المطبعة المدرسية، اوكسفورد، ص ص 28 29

9) أبو العلاء ، المعري ، سقط الزند ، ص 40

10) طه ، حسين، مع أبي العلاء في سجنه ، دار المعارف، مصر،1981 ص 51

11) م ن ، ص ن

12) أبو العلاء ، المعري ، سقط الزند ، ص 46

13) أبو العلاء ، المعري ، الفصول والغايات في تمجيد الله والمواعظ ، دار الآفاق الجديدة ، بيروت ، ص 80

14) أبو العلاء، المعري ، اللزوميات ،الهيئة المصرية العامة لكتاب، ج1، ص57

15) م ن ، ص 99

16)م ن ، ص 269

17) أبو العلاء ، المعري ، اللزوميات ، تح : أمين عبد العزيز، ج2، مكتبة الخانجي ، القاهرة، ، ص 107

18) السيوطي ، بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة ،تح: محمد ابو الفضل ابراهيم،ط1979،2، ج2، دار الفكر، ص 116

19) م ن ، ص 183

20) م ن ، ص ص 242 243

21) السيوطي ، بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة ، ص 11

22) عبد القادر ، محمود ، رحلة إلى الدار الآخرة مع أبي العلاء و دانتي ، ط1، 1997، مركز الكتاب للنشر، ص 11

23) عبد القاهر ، الجرجاني، أسرار البلاغة ، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان ، 1988، ص239

24) أبو العلاء ، المعري ، الفصول والغايات ، ص49 .

25)م ن ، ص 48.